في ركن كوخ بسيط من اكواخ قرية مجاورة لمدينة « باتنة » في الجزائر تقيم فتاة في سن تفتح الزهور ، لم تعد تستطيع الحركة الا معتمدة على حطام ام هدها هول الفاجعة : فاجعة انقطاع الجياة عن اعصاب قدمي وحيدتها الشابة .

لقد اختارت هذه الفتاة العربية الشلل على ان يعبث بشرفها جنود المظلات المستعمرين . فاليها وحدها اقدم هذه القصة .

خمسة عشر يوما ، حتى الان ، وقريتنا تعاني اعباء « قرة ثلجية » قاسية ، اكداس من الثلج تصل رؤوس الهضاب والمرتفعات بعضها ببعض، وتغطي الوهاد والوديان ، زوابع ثلجية من النوع المسمى عندنا « بالسفاي » تهب بين الاونة والاخرى ، وتذرو الثلج في الجو ، فتحجب الارض والسماء عن الاعين ، وتحيل النهار الوضاء الى ليل طبقاته غلالة بيضاء ناصعة .. لا ادري لماذا يقشعر بدني كلما طرقت مسمعي كلمة « السفاي » . لعلها تذكرني بتلك السنة التي حاصر فيها ابن عمتي موسى في الدكان ، وكاد يقضي عليه بالرغم من بنيته القوية ، كنت لاول مرة ارى الموت مرتسما على وجهه ، وهو فاقد الوعي امامنا ، متصلب العضلات ، كنت ، وانا ابنة العاشرة ، أجس ذراعه فاجده باردا متخشبا. وبعد يوم وليلة قضاهما موسى بين التدليك بالماء الساخن ، وتطويق النار له من كل الجهات ، استيقظ ، وقص علينا الاهوال التي مرت به ، وكيف بدأ رحلته من «بحيرة الارنب» في جو صحو ، ثم كيف فاجأه السفاي في الدكان ، وغطى طريقه ، واصبح يسير دون هدى ، تحت مخادعة ثلوج الزوبعة ، فاحيانا يقع في هوة ، واحيانا اخرى يصطدم بشجرة لم يبق لها أثر باد للعين ، وكيف سار ما يقرب من ميلين فاقد الوعي ، يمشي وكانه الشبح .

انني احس ببدني تتملكه قشعريرة اشد حدة في هذه السنة كلما تصورت أخوي الجنديين في جيش التحرير ، يصارعان السفاي داخل شعاب الجرف ، او وسط وديان الجبل الابيض ، انه احساس البنت الوحيدة في الاسرة ، التي تخشى ان تفقد أخوين كانا يحيطانها بعنايتهما الى درجة التدليل ، شعور غريب يتملكني كلما تصورت اخي « بوجمعة» يصارع السفاي واهواله ، وسط طبيعة جبلية قاسية ، وهو لم يتجاوز السادسة عشرة . أعرف ان اخوي يكافحان في سبيل اعظم قضية ، ومن اجل انبل هدف ، وان مصيرهما سيكون الجنة ، الا ان هذا القلب لا يريحني ، قلب فتاة حكمت عليها الظروف ان يدللها كل افراد اسرتها ويكونوا في نفسها هذا النوع من الحساسية الحادة امام الاحداث ، قلب فتاة ما ان تجاوزت سن البلوغ حتى انقلبت شخصيتها من مرح ولا مبالاة ، والى انطواء وجد ، فبعد ان كانت تضحك من كل شيء ، صارت تتاثر من كل شيء ، وتنهمر دموعها لاتفه حادثة . وكم من مرة فاجأتني امي بقولها :

ـ يا عيشه لا تثيري متاعبي .. كفى دموعا بربك .. ان اخويك مجاهدان في سبيل الله والوطن وهما في غنى عن دموعك ..

ـ يا امي الغالية .. انه فوق طاقتي .. لا اقوى على حبس دموعي كلما تذكرت « بوجمة » ... صحوت هذا اليوم على يد امي توضع على جبهتي ، وصوتها يرن في أذني :

ـ قومي يا ابنتي ، لم يبق عندنا وقود ، اصحبي اخاك الى الجبل واحضري لنا حزمة من الحطب .

لا اذكر اننا احتجنا في سنة من السنوات الماضية الى الحطب في الشتاء. كان اخواي الشابان « احمد » و « بوجمعة » يوفران علينا هذا العناء ، ويخزنان اكداسا من الحطب في « البرطال » . اما هذه السنة فلم يقو اخي الكبير ساعي على احضار كميات تكفينا ، وحتى الحيوانات التي تعود اخواي استعمالها صادرها الفرنسيون ، ولم يتركوا لنا منها سوى أتاننا الشهباء العجوز التي لم تعد قادرة على القيام بجهد كبير ، ولولا عطف امي عليها لارتباطها بذكريات عزيزة لديها، لقدمها ساعي طعاما للكلاب في هذه « القرة » .

تعود سكان القرية كلما غطت الثلوج الطرق ، واستحال على الحيوانات شق طريقها وسط اكداس الثلج ، تعودوا ان يجلبوا الحطب على ظهورهم ، وهذا هو الذي جعل اخي ساعي يقرر ان اذهب في صحبته وصحبة ولديه التوأمين اللذين لم يتجاوزا الثانية عشرة ، لجلب قليل من الحطب يكفينا خمسة ايام او ستة . الا ان ساعي كان يعاني صراعا نفسيا حادا ، كلما فكر في استصحابي معه ، ولم يستطع ان يفاتح امي في الموضوع الا بعد تمهيدات ملتوية، فانا في نظر الاسرة البنت المدللة التي لم تتعود القيام بعمل خارج البيت ، او وضع قربة الماء ، او حزمة الحطب على ظهرها ، طيلة سنواتها العشرين . الا ان سنوات الثورة الثلاث ، ومفارقتي لاخوي ، وتلاشي ثروتنا على ايدي الفرنسيين، احدثت انقلابا جذريا في نفسي، وكونت في سلوكي نوعا من المسئولية في مشاركة الاسرة مشاكلها ، فلم اعد اقبل ان تخصني امي بشيء دون بقية افراد الاسرة ، وكثيرا ما ثرت في وجهها وانا اجهش بالبكاء:

ـ يا امي انا لم اعد طفلة حتى احاط بهذا التدليل ، لم اعد اطيق صبرا امام هذه الامتيازات ، بل اريد ان اعامل كأي فرد من افراد الاسرة .

ولعل ساعي لحظ التغير الجذري في شخصيتي ، فتشجع ، هذه السنة ، وطلب من امي ان امد له يد المساعدة خارج البيت . ولم توافق امي الا بعد تفكير طويل ، لا لانني لا زلت البنت المدللة في نظرها ، وانما كانت تخشى علي من الجنود الفرنسيين ، الذين كثيرا ما يفاجئون نساء قريتنا في الموارد والغابات .

نهضت ، فاعددت الحبل ، وتدثرت « ببخنوقي » و « بخنوق » امي ولبست « قمرقا » اعده لي ساعي ، واحتسيت « دشيشة مرمز »ساخنة، ثم غادرت البيت بعد ان سمعت دعاء امي .

سرت وراء ساعي ، وبين علي والطيب الصغيرين ، كانت السماء زرقاء، والارض البيضاء بدأت تعكس اشعة الشمس المطلة على حافة الافق في استحياء ، كأنها غادة « بلدية » قادمة لتوها من الحمام ، راحت تنزع عن وجهها الجميل المتورد خمارها الابيض . كان السكون شاملا للغاية،

فبالرغم من هبوب نسيم بحري ، الا أن الاغصان كانت متبلدة لم تتجاوب معه كما اعتادت ، وكأن هذه الاشجار المكدس على اغصانها الثلج ، شيوخ انهكتهم السنون ، فجلسوا انقرفصاء متدثرين « بغشابياتهم » الصوفية البيضاء ، سابحين في تأملاتهم الحالمة حول هذا الكون الفسيح ، منغمسين في اجترار احداث سنوات أعمارهم الطويلة .

سرت وراء ساعي ، وسط هدوء الغابة ، ولم يكن يقطع حبل افكاري سوى زقزقة عصفور جائع ينتقل من شجرة الى اخرى باحثا عن قوته .

كان ساعي ، لما له من خبرة ، يدرك جيدا اسرار الطبيعة ، ويعرف كيف يتحايل عليها ، ويتجنب شباكها ، كان يقول لي بين الاونة والاخرى:

ـ اطمئني يا عيشة ! انني اعرف هذه شبرا شبرا ، اعرفها منذ السابعة ، عندما كنت اصحب ابي في مراعيه ، ولا ابالغ اذا قلت لك انني اعرف كل منخفض ، وكل مرتفع ، وكل واد في هذا الجبل، بل وكل شجرة .

ثم وقف واشار باصبعه ، وهو يقول ، وسحابة من التأثر تعلو وجهه :

ـ انظري الى هذه الشجرة ، فتحتها شوى ابي رحمه الله ارنبا بريا اصطاده واقتسمه معي مناصفة . أتدرين في اية سنة حدثت هذهالقصة انها قبل ولادتك بثلاثة اشهر ، ولا زالت ماثلة في ذهني بتفاصيلها وكانها حدثت البارحة .

ولم يكد ساعي يتم كلامه حتى صاح الطيب الصغير :

ـ أبي ، انظر .. أثر أرنب..

وانعطف ساعي نحو ابنه ، وتفحص الاثر بعينيه المجربتين ، ثم قال :

ـ حقا .. انه اثر أرنب ، سأترك لك الفرصة في هذه المرة ، لتعدو وراءه وتقبض عليه جزاء انتباهك . لكن حذار ان تحذفه بالعصا ، بل يجب ان تبرهن على سرعة عدوك وتقبض عليه بيدك. خذ معك اخاك ، ثم الحق بنا في جوف هذه الشعبة .

ان هذه الايام افضل وقت لصيد الارانب ، فهذا الحيوان السريع العدو يصبح عاجزا عن الجري مسافة طويلة كلما ازداد تراكم الثلوج على سطح الارض ، ويستطيع ، أثناء « القرة » الثلجية ، ابسط واحد منا ان يقبض عليه بيده بعد امتار معدودة . ما ادفأ هذا الركن من الغابة الذي اختاره ساعي للتحطيب ، فأرضه غير مغطاة بالثلج، ورؤوس « الديس » المنتشرة فيه جافة ، وخيوطها الموالية للارض قابلة للاحتراق ، وتحيط به اشجار من الصنوبر عملاقة يعبث الهواء بابرها الحمراء . قال لي ساعي :

ـ اوقدي نارا هنا تحت هذه الشجرة ، سوف احضر لك قطعا من خشب « القنديل » .

حضر الطيب يحمل بيده ارنبا كبير الحجم ، وعلامات الزهو بادية على وجهه :

ـ عمتي .. انظري ! لقد قبضت عليه بيدي ، بعد ان جريت وراءه كثيرا . يا لحيلته ! كان يفرض علي ان اتعقبه وسط حفر يصل الثلج فيها الى حزامي .

تركت الطيب وعلي حول النار ، ثم ذهبت اجمع قطع الحطب المتناثرة ، تحت ضربات ساعي القوية ، وحملت القطعة الاولى والثانية والثالثة عندما تناهى الى سمعي صوت طائرة . فاتجهت نحو حافة الافق القادم منها الصوت ، فرأيت طائرة عمودية قادمة في اتجاهنا ، وتوقفت ضربات فأس ساعي فجأة ، والتفت نحوي بوجه اسود ، وبجبين معقود ، وبعينين شاخصتين ، ثم قال :

ـ عيشة ... اختفي بسرعة عن الانظار .

جريت نحو مجموعة من شجيرات البلوط ، متشابكة ، وجلست بينها ، ورفعت رأسي نحو السماء اطلب من الله ان يغمرني « بستره » فهؤلاء المستعمرون لايحترمون اية قيمة في الوجود ، فالشرف ، والكرامة وكل قيمة جليلة في الحياة يضعونها تحت احذيتهم الخشنة ، ان شرف الانثى هو رأسمالها الوحيد الذي يحق لها ان تدخل بواسطته معمعة الحياة . والمجتمع والعرف عندنا يمنح الرجل الحق في ان يرد عروسه الى بيت ابيها ، اذا لم يجدها بكرا في ليلة العرس . لن أنسى قصة تربي « حدة » التي ارجعها زوجها الى بيت ابيها راكبة لحمار في الثلث الاخير من ليلة عرسها ، ورفض حتى ان يعيدها على بغلة . ان العرق يتصبب من جسدي في أقسى ايام الشتاء بردا كلما تذكرت هذه القصة ، واظن ان كل واحدة من بنات جنسي يتملكها نفس الشعور كلما استعرضت حادثة مماثلة امام ذهنها . لاادري لماذا تدور هذه الخواطر برأسي في هذه اللحظة ، وما علاقتها بتحليق طائرة فرنسية ..

كانت الطائرة تشبه الجرادة في شكلها ، وهي تستطيع ان تحط في اي مكان مهما كان وعرا ... ويبدو ان طيارها لحظنا ، فهو يتجه نحونا بسرعة مذهلة ، بل انها بدأت تنخفض عندما صارت فوق رؤوسنا. ها هو قائدها يطل برأسه ويتفحصنا بمنظاره ، يبدو انه لحظني وانا اركض نحو مخبأي فاذا به يسف بالطائرة .. وكانه يبحث عن مكان صالح للهبوط . بل ها هو يتجه الى مكان خال من الاشجار ، لايفصلنا عنه اكثر من مئتي خطوة .. وتوقف ساعي مرة ثانية عن توجيه فأسه لساق الشجرة ، ثم سمعت صوته :

ـ قومي يا عيشة ، اهربي .. .اسلكي هذه الشعبة ، سوف توصلك الى « مشتى اولاد مسعود » ... خذي معك الطيب ليسلك بك المسالك التي لايتراكم الثلج عليها بكثرة . سأبقى هنا لاحول انتباههم عنكما .

وخرجت من مخبأي واقتفيت اثر الطيب الذي راح يقفز امامي بخفة وهو يقول :

ـ لاتخافي يا عمتي ، فلن ينالوا منك .. سوف اسلك بك مسالك لاتقوى احذيتهم الثقيلة على اجتيازها .

كان الطيب يعرف مسالك الغابة القريبة من قريتنا من خلال مصاحبته لابيه في مراعيه منذ الثامنة ، وهو يملك جرأة وذكاء لم ألحظهما لدى اي طفل في سنه ، بدأ يحس بالمسئولية في سنه المبكرة ، وازداد هذا الاحساس بعد اندلاع ثورتنا ، بل انه طلب قبل ايام من ابيه ان يسمح له بالانضمام لجيش التحرير ، عندما حدثه « بو جمعه » عنوجود جنود صغار لم يتجاوزوا الرابعة عشرة بين صفوف جيش التحرير . وحين دخلنا الشعبة سمعت صوت الحصى المتطاير من تحت اقدام لاشك وانها تتنعل احذية غليظة . يبدو انهم انتبهوا الى فرارنا ، وسمعت بعد ذلك طلقات نارية وراءنا . يحتمل ان يكون ساعي قد فارق الحياة . ان الفرنسيين لايتورعون عن ارتكاب جريمة مثل هذه . بل انهم اعتادوا قتل العزل لا من الرجال فقط ، بل ومن النساء ايضا ... ونظرت الى الطيب في اشفاق ، قد تصير منذ اليوم يتيما يا حبيبي الصغير ، وتضاف الى قائمة الايتام الطويلة في بلادنا . ما اقرب الموت منا ، في هذه الايام ، انه ينتشر بيننا اكثر مما انتشر في سنة « التيفوس » ، كنا في تلك السنة نتلقى الموت باطمئنان وهدوء تحت ظلال اغفاءات الحمى ، كنا نتلقاه لاواعين ، اما الان فان الموت يداهمنا مصحوبا بهذا الرعب الرهيب يجابهنا ونحن في أتم وعينا ، بل قد يشاهد الواحد منا المنية

بفظاعتها لابسة رداء الاغتيال البشع ، منتصبة امامه انتصاب القدر ، قبل ان يفارق الحياة . كان الموت قبل هذه السنوات زائرا خفيف الظل بالنسبة لما نشاهده اليوم ، رغم الفقر والمرض المنتشرين بيننا . لازلت اذكر تلك السنة التي فقدت فيها والدي ، لقد لطمت خدي ووجنتي ، وخدشت بعنف وجهي بأظافري الحادة ، ولم ترق سوى مقلتي سليمتين من الخدش ؟ وتورم وجهي حتى غارت عيناي داخل رأسي ، واستمرت اسرتنا اشهرا في مأتم موحش . اما الان فان الاسرات من عائلتنا الكبيرة سقطوا تحت رصاص المستعمرين ، وكنا نستقبل في كل يوم فظائعهم بهدوء غريب . لقد اصبح الموت مألوفا لدينا في هذه الايام .

يبدو ان الطيب لحظ من تقلصات عضلات وجهي ، ونظراتي المعبرة ، الشعور الذي يسيطر علي في هذه اللحظة ، فقال وصوته تخنقه الدموع :

ـ لاتخافي يا عمتي .. لا تخافي ..

ياعزيزي الطيب ، ان لساني لعاجز عن الكلام لهول الفاجعة ، والطريق طويل وشاق .. يا حبيبي الصغير متى سنصل الدشرة لاضمك الى صدري ، وألثم ذينك القدمين الصغيرين الزرقاوين من شدة البرد .

لا ادري كم قطعنا من الطريق .. لم احس بشيء ، حتى بقدمي ، وهما تلامسان الارض ، فقدت كل احساس بالعالم الخارجي ، اصبحت لا افكر سوى في امر واحد وهو : « شرفي » ، اصبح مجتمعنا منذ سنوات يتساهل مع الفتاة التي تفقد بكارتها على ايدي الفرنسيين ، عشرات الشبان يتسابقون لخطبتها . لكن كابوسا رهيبا يتملكني كلما تصورت نفسي بين يدي جندي فرنسي . بأي وجه اقابل الهادي ـ خطيبي ـ الضابط في جيش التحرير ، ليلة الزفاف . لا تخش يا حبيبي ، فلن اترك شرفك يعبث به من قضيت سنوات تعمل على اجتثاث جذورهم السامة من ارضنا الطاهرة . سوف اقتل نفسي قبل ان تمتد الي ايديهم. وتحسست « الخلالة » في صدري ان طول سنها كاف لان ينفذ من بين الضلعين الى القلب ، ثم تأتي النهاية ، لكنها نهاية شريفة .

مزقت الاغصان ملابسي ، الدم ينزف من ذقني . اثار الدم وسط مواطىء قدمي . اظن ان قدمي الرقيقتين لم تتحملا البرد فانفجرتا . كل هذا لن يثني عزيمتي عن النجاة ، كنت اقفز بين الصخور ، وانحني تحت الاغصان ، لا بطبيعة الفتاة المدللة ، بل بعزيمة تشبه ارادة الفتاة الراعية .. ان هذه القوة استمدها من طيفك يا حبيبي الهادي .

كان تصوري خاطئا ، لم يكف الفرنسيون عن مطاردتنا ، فاصواتهم عادت الى ملاحقتنا من جديد ، بل ان صوت طائراتهم يعلو في اتجاهنا .

ـ عمتي .. يبدو ان الطيار حلق ليكتشفنا ، وليوجه رفاقه نحونا .. اسرعي ياعمتي . لقد اقتربنا من النجاة .

وصلت الطائرة الينا .. . انها فوق رؤوسنا ، ها هو طيارها يخرج رشاشه من النافذة ويطلق الرصاص امامنا يريد عرقلتنا عن التقدم ، كان الطيب يركض خلال الرصاص الذي يتساقط امامه ، ويترك خلفه ثقوبا سوداء على صفحة الثلج .

ـ عمتي .. لقد نجونا ها هو « فج اولاد سليمان » ، لم يبق لنا سوى صعود هذه العقبة ، وعندها سيظهر بيت « اولاد الغربي » على بعد خطوات منا ..

ولم يكد الطيب يكمل عبارته ، حتى سقط على الارض وهو يمسك بيديه ركبته اليسرى واسرعت نحوه ، وانحنيت على رجله ، الا انه صاح في وجهي بصوته الطفولي الحاد وهو يحاول كبت آلام الاصابة :

ـ اذهبي ياعمتي .. اطمئني انه جرح بسيط ، سوف اكمل المسافة زحفا . وبلع ريقه .. ثم اشار باصبعه الصغيرة .

ـ سيري في اتجاه تلك الشجرة . لاتقتربي من ذلك المكان ، فهناك تختفي هوة تحت الثلج .

تركت الطيب يتلوى في ألمه وعدوت في اتجاه الشجرة ، وما كدت اتجاوزها قليلا حتى غارت رجلي اليمنى في الثلج .. وتشبثت بفرع شجيرة ، ثم سحبت رجلي ، ورحت ازحف على ركبتي وكفي ، تجنبا للوقوع في الفجوات المختفية .

ثم وصلت الى نهاية العقبة ، وأطللت على « مشتى اولاد مسعود » ، وحاولت الوقوف على قدمي ، وأكملت المسافة اجر رجلي خلفي كما يجر حصان منهك محراثه في ارض بور مليئة « بالقزامير » ... وعهدي بما تبقى لي من وعي امام حوش « اولاد الغربي » ..

فتحت عيني لاجد امي تحدق في وجهي بعينين بللتهما الدموع ، على ضوء مصباح خافت . يبدو انني غبت كثيرا عن الوجود . كان اول سؤال سالته عن ساعي والطيب وعلي ، فطمأنتني امي ، ثم احتضنتني وهي تقول :

ـ عيشة ، حبيبتي ، مضى عليك يوم كامل ، وانت فاقدة الوعي .. خبريني يا حبيبتي ، هل تحسين بألم ؟

ـ ياأمي الغالية .. لم اعد احس بقدمي .. اخشى ان افقدهما .

ـ ذهب ساعي الى الدكان لاحضار طبيب الجيش ، بلغنا انه عند « اولاد خليفة » .

وعند الفجر فتحت عيني على يد امي توضع فوق رأسي ، كان شاب في مقتبل العمر ، يفتح حقيبة صغيرة ويحدق في بعينين زرقاوين ، يبدو انه من سكان جبال القبائل . ثم تقدم نحوي ، وراح يفحصني بدقة ، وكان بين الفينة والاخرى ، يرسم خطوطا مستقيمة على دفتر امامه . وبعد وقت خلته الدهر قام وطلب من امي ان تدثرني جيدا ، ثم خرج من الغرفة يجر قدميه بتثاقل .. ولاول مرة اسمع صوت ساعي يجهش بالبكاء .

وبعد ايام ادركت سبب بكاء ساعي .. لقد اخبره الطبيب ان « ثقيقته المدللة ، فتاة الاسرة الوحيدة » اصاب قدميها الشلل ، وان الامل في شفائها ضئيل .

الكويت : « الخليج العربي » **عثمان سعدي**

من منشورات دار الآداب

الحي اللاتيني(رواية) للدكتور سهيل ادريس

الخندق الغميق (رواية) للدكتور سهيل ادريس

دار الآداب ص.ب ٤١٢٣